مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ديناميكيّة التّصوّف: من الابستمولوجيا السّنيّة إلى الأنطولوجيا الفلسفيّة

The Dynamics of Sufism: From Sunni Epistemology to Philosophical Ontology

د. سلـوى بن أحمـد

Dr. Saloua Ben Ahmed

جامعة الزّيتونة ـ تونس

Al-Zaytounah University – Tunisia

salouabenahmed22@gmail.com

https://orcid.org/0009-0000-7778-0496

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359 ISSN: 2958-8537 Issue: N19
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الملخص :

تتّسم التّجربة الرّوحيّة في التّصوّف الإسلامي بالتّنوّع المعرفي بين ثنائيّة الغيب والشّهادة، وفق طريق ومنهج معيّن يلتزم به السّالك للارتقاء من مقام إلى مقام وذلك مرورا بأحوال مختلفة تنحت نهاية المطاف الخلاصة المعرفيّة التّي توصّل إليها، غير أنّ هذه التّجربة الرّوحيّة اتّخذت على منحيين تحت نفس المسمّى وهو "التّصوّف"، المنحى الأوّل تعبّديّ عقلي ملتزم بروح الدّين وتعاليمه، والمنحى الثّاني مزج بين تجارب وأفكار فلسفيّة أخرجته من حقيقة ذاته التّعبّديّة وأفقدته روح الحكمة والصّفاء، فكانت المعرفة نتاجا لذلك بين الحقيقة والخيال، حقيقة من روح الدّين وخيال من روح فلسفات واهية.

الكلمات المفتاحية : التّصوّف السّنّي، التّصوّف الفلسفي، الزّهد، المعرفة

Abstract :

The spiritual experience in Islamic Sufism is characterized by cognitive diversity between the duality of the unseen and the martyrdom, according to a certain path and approach that the traveler adheres to rise from a place to a shrine, passing through different conditions that eventually sculpt the epistemological conclusion he reached.
However, this spiritual experience was taken in two directions under the same name, which is "Sufism", the first trend is mental devotional committed to the spirit of religion and its teachings, and the second trend is a mixture of philosophical experiences and ideas that took him out of the reality of his devotional self and lost him the spirit of wisdom and serenity. Knowledge was a product of that between fact and fiction, a fact from the spirit of religion and a fiction from the spirit of flimsy philosophies.

Keywords: Sunni Sufism, philosophical Sufism, asceticism, knowledge

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

1. المقدمة

يعتبر التّصوّف الإسلامي علما من العلوم النّاشئة من عمق ديانة التّوحيد، فهو ممارسات تعبّديّة يسعى المتصوّفة من خلالها للوصول إلى درجة الإحسان التّي تفضي إلى الأنس بالله، وهذا التّصوّف يرتكز أساسا على تعاليم الدّين الإسلامي التّي تأطّره وتضبط منهجه، لهذا سمّي في مراحل متقدّمة بالتّصوّف السّنّي تمييزا له عن التّصوّف الفلسفي الذّي تبلور في ما بعد عن عدّة توجّهات فكريّة وفلسفيّة خارجيّة.

تميّز التّصوّف السّنّي بمميّزات أفضت سالكه إلى معارف وحقائق وجوديّة وذوقيّة قامت على التّصديق والتّسليم والرّضى، بيد أنّ النّوع الثّاني من التّصوّف اعتمد على مفاهيم عقليّة كلاميّة غاب عنها الذّوق والتّدبّر في محاولة لمعرفة الذّات الإلهيّة بطرق مبتدعة مثّلت مرحلة يمكن وصفها بالمختلطة والمغتربة.

والحقيقة أنّ كلا الصّنفين متقابلان ومتباعدان، متضاربان ومتوافقان إلى حدّ ما، من حيث النّتائج الابستمولوجيّة و الأنطولوجيّة المتوصّل إليها، بما يطرح عديد الأسئلة والاستفسارات.

2. أهداف البحث

تهدف هذه الدّراسة إلى :

- تحديد مراحل نشأة وتطوّر علم التّصوّف بما يفضي إلى استيعاب كنه وأسسه.
- بيان الفرق بين التّصوّف السّنّي والتّصوّف الفلسفي من حيث مناهج المعرفة والطّرق الموصل إليها ومدى صحّتها.

3. أهمية البحث

تكمن أهمّية هذا البحث في بيان وتوضيح أهمّ الأسس المعرفية وطرق الحقائق الذّوقيّة في التّصوّف الإسلامي بشقّيه السّنّي والفلسفي مع استقراء طبيعة نتائجها .

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

4. منهجية البحث

اعتمدنا في هذا البحث على المنهج التّأريخي حيث أرّخنا لنشأة علم التّصوّف، والمنهج التّحليلي أين حلّلنا الأسس المنهجيّة ومميّزات هذا العلم، مع استقراء جملة نتائجه عاضدين ذلك بالمنهج المقارن بين الشّق السّنّي والفلسفي من علم التّصوّف.

5. إشكالية البحث

- ما هي أسباب نشأة وتطوّر علم التّصوّف ؟
- ماهي الأسس الرّئيسيّة التّي جعلت من البناء المنهجي والذّوقي في التّصوّف السّنّي منظومة ابستمولوجيّة يمكن تصديقها ؟
- إلى أيّ مدى يمكن الوثوق بالنّتائج الأنطولوجيّة للتّصوّف الفلسفي؟

6. الدراسة

المطلب الأوّل: التّصوّف الإسلامي بين المفهوم والنّشأة

1. التّصوّف لغة واصطلاحا :

أ. لغة:

يقال التّصوّف لغة من الصّفة وهي الظّلّة أي المكان الواسع العالي السّقف، وهو مكان مضلّل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرون ويرعاهم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وهم أصحاب الصُّفّة.[1]

ويذكر صاحب القاموس المحيط أنّ لفظ صوفة نسبة إلى الغوث بن بركان، اسم رجل كان قد انفرد بخدمة الله عند بيته الحرام، فانتسب الصّوفيّة إليه لمشابهتهم إيّاه في الانقطاع إلى الله .[2]

[1] مبارك، زكي، التّصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1/ 2006 ، ص67.
[2] مبارك، زكي، التّصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص17.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

والتّصوّف مشتقّ لغويّا من كلمة "صوف"، والجمع أصواف والصّوف كلّ من أولى شيئا من عمل البيت وصاف عنّا شرّه يصوف عدل[3]، والتّصوّف لغة نسبة إلى كلمة الصّوف للبسهم الصّوف[4]، لأنّ لبس الصّوف دأب الأنبياء عليهم السّلاّم وشعار الأولياء والأصفياء[5].

ويذكر الكلاباذي أنّ الجاحظ أوّل من استعمل مصطلح الصّوفي عندما تكلّم عن النّسّاك، وأنّ أبا هاشم الكوفي أوّل من لبس الصّوف وأطلق عليه متصوّفا لزهده في الدّنيا.[6]

ب. **التّصوّف في الاصطلاح :**

تعدّدت تعريفات التّصوّف الاصطلاحيّة وذلك لتعدّد الأحوال والمقامات، فكلّ من قد عرّف التّصوّف عرّفه بناء على حاله وانطلاقا من مقامه، فهو عند الجنيد أن " تكون مع الله بلا علاقة "[7]، وفي مقام آخر رآه الرّجل أنّه " أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام".[8]

وهو عند الشّبلي "الجلوس مع الله تعالى بلا هم"[9]، وعند القشيري "طريقة سلوكيّة قوامها التّقشّف والتّحلّي بالفضائل لتزكو النّفس وتسمو الرّوح"[10]، لهذا رآه أبو الحسن الشّاذلي "تدريب النّفس على العبوديّة وردّها إلى أحكام الرّبوبيّة"[11]، حتّى كان الصّوفي عند ذي النّون المصري " من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب"[12].

إجمالا ركّزت التّعريفات الاصطلاحيّة على الصّفات والمثل العليا بمعنى الجانب الأخلاقي الذّي أولاه التّصوّف أهمّيّة بالغة حتّى سمّي بعلم الأخلاق، ومن أدقّ التّعريفات التّي حدّدت مفهوم التّصوّف هي التّي حملت طابعا أخلاقيّا، حيث

---

[3] ابن منظور، جمال الدّين، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج 28، ص 2557.
[4] السّهروردي، شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، دار الكتب العلميّة، 1999، ج1، ص82.
[5] الطّوسي، أبو نصر عبد الله السّرّاج، اللّمع في تاريخ التّصوّف، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التّوقيفيّة، القاهرة، ط/ دت، ص40.
[6] الكلاباذي، أحمد شمس الدّين، التّعرّف على مذهب أهل التّصوّف، دار الكتب العلميّة، بيروت 1993، ص 9.
[7] القشيري، أبو القاسم بن هوزان، الرّسالة القشيريّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط/ دت، ص127.
[8] الطّوسي، السّرّاج، اللّمع في التّصوّف، تحقيق رينولد نيكلسون، مطبعة بريل، 1914، ص26.
[9] السّلمي، أبو عبد الرّحمان، طبقات الصّوفيّة، كتاب الشّعب، ط1، 1970، ص337.
[10] القشيري، الرّسالة القشيريّة، ص311.
[11] صقر، حامد إبراهيم محمّد، نور التّحقيق في صحّة أعمال الطّريق، دار التّأليف، مصر، 1970، ص93.
[12] السّهروردي، شهاب الدّين، عوارف المعارف، دار الكتب العلميّة، 1999، ج1، ص 67.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وصفه أصحابه بالأدب، يقول أبو حفص الحدّاد (ت 265هـ) في تعريفه للتّصوّف "التّصوّف تمام الأدب"[13]، وفي تعريف آخر هو " الدّخول في كلّ خلق سنّيّ، والخروج من كلّ خلق دنيّ". [14]

ويشير ابن خلدون إلى صعوبة وضع تعريف شامل للتّصوّف لأنّ مختلف التّعريفات التّي وضعها الصّوفيّة لم يقصد القوم من خلالها تعريف التّصوّف تعريفا علميّا شاملا يستوعب كلّ صوره وجزئيّاته بل قصدوا التّعبير عن أحوالهم الخاصّة، ولأنّ التّطوّر السّريع الذّي شمل كلّ مرافق الحياة الإسلاميّة نتيجة لاتّساع الدّولة واشتمالها على ثقافات دينيّة سابقة للإسلام، ونتيجة لذلك دخلت على المجتمع الإسلامي معان وأفكار جديدة، استوعبتها الثّقافة الإسلاميّة وصارت تبعد يوم بعد يوم بواسطتها عن أصلها الأوّل، وهذا ما حدث لمفهوم التّصوّف حيث تعدّدت تعريفاته ولم يعد ينطبق عليه حدّ واحد.[15]

والتّصوّف مراحل ومراتب، وأوّل طريقه إرادة ومنها كان اسم المريد وهو صاحب الوقت والمجدّ في العبادة للوصول إلى مراده وهي أوّل خطوات التّصوّف وبداية الانطلاقة.

وأمّا الدّرجة الثّانية وهي درجة السّالك وهو صاحب الحال لانتقاله من حال إلى حال، بالتّالي من مقام إلى مقام وهو هو في الخضم مطالب بمراعاة الصّدق في الأحوال وفناء النّفس في العبادة، وهذه الدّرجة من التّصوّف هي درجة العمل لهذا قيل أنّ أوسطه عمل.

وأمّا الثّالثة وهي درجة المنتهى فهي أعلى درجات التّصوّف ومنتهى أعمال الصّوفيّة، قد جاوز صاحبها المقامات وصار في محلّ التّمكين لا تؤثّر فيه الأهوال ومقامه الصّحو والإجابة للحقّ، استوت في حقّه الشّدّة والرّخاء والمنع والعطاء، باطنه مع الحقّ وظاهره مع الخلق، وصاحب هذه الدّرجة من أهل القرب والمكاشفات.

2. ظهور مصطلح التّصوّف

[13] فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، دار الجيل، بيروت، 1993، ص136.
[14] فتّاح، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، ص136.
[15] ابن خلدون، عبد الرّحمان، شفاء السّائل لتهذيب المسائل، تحقيق محمّد بن تاويت الطّنجي، اسطنبول، 1957، ص45.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

تمثّلت أوّل أطوار التّصوّف الإسلامي في نزعات الزّهد التّي ظهرت خلال القرن الأوّل والثّاني للهجرة، وقوامه الانصراف عن الدّنيا ومتعاها والعناية بأمور الدّين، ومراعاة أمور الشّريعة بغية الظّفر برضوان الله والنّجاة من عقابه [16].

يقول التّفتزاني في الغرض "ولعلّه قد تبيّن من أقوال بعض زهّاد البصرة في الزّهد أنّها كانت تدور حول معنى الخوف من عذاب الآخرة، وهو الخوف الذّي يستتبع العمل الدّيني الجاد، والانصراف عن ملذّات الدّنيا بالتّقلّل في المأكل والمشرب، وغير ذلك ممّا لا يخرج عن حدود زهد النّبيّ وصحابته. [17]

يقول القشيري "اعلَموا أنَّ المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صَحَبة الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضليّة فوقهما، فقيل لهم "الصحابة" ثم اختلف الناسُ وتباينت المراتب، فقيل لخواصّ الناس ممن لهم شدّة عنايةٍ بأمر الدّين "الزهّاد والعبّاد"، فانفرد خواص أهل السنّة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم "التصوّف" واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة " [(18)].

وبناء على ما سبق، يكون القرن الثّاني هجري تاريخ بداية ظهور التّصوّف الإسلامي كاسم ويؤكّد هذا ما قاله العلاّمة ابن خلدون في كتابه تاريخ نشأة التصوّف " فلمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصّ المقبلون على العبادة باسم "الصوفيّة" و"المتصوّفة" [(19)].

تطوّرت هذه المرحلة فترة حكم الخلفاء الرّاشدين وقد مثّله مجموعة من الصّحابة منهم أبي ذرّ الغفاري وسلمان الفرارسي، يروي أبو العلا عفيفي أنّ أبا ذرّ ظلّ ناقما على السّلطة القائمة آنذاك وعلى التّفاوت في الثّروة بين الأغنياء والفقراء،

---

[16] الهجويري، علي بن عثمان، كشف المحجوب لأرباب القلوب، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النّهضة العربيّة، القاهرة، 1980، ص28.

[17] التّفتزاني، أبو الوفاء، مدخل إلى التّصوّف، ص77.

[18] خليفة، مصطفى بن عبد الله حاجي، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، 2020، ج1، ص414

[19] ابن خلدون (عبد الرحمن): "المقدمـة"، دار الجيل، بيروت، د ت، ص517.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وأقرّ أنّ هذا التّيّار لم يشكّل حركة من الحركات الدّينيّة أو مذهب من المذاهب ولا نظاما اجتماعيّا بل كان نزعة فرديّة قوامها الدّين وحده: القرآن والسّنّة.[20]

وتعتبر الثّورات والفتن والحروب الدّاخليّة التّي قامت خلال العقود الأولى من تاريخ الإسلام كحركة الفتنة الكبرى التّي أودت بحياة عثمان وما تلاها من حروب: الجمل وصفّين والنّهروان، ثمّ مأساة كربلاء التّي انتهت باستشهاد الحسين، كلّ ذلك أثّر في صفوة وجوه الصّحابة والتّابعين ودفعهم على الاعتزال السّياسي والرّغبة عن الدّنيا والخلود إلى حياة الزّهد والعبادة.[21]

ثمّ زاد هذا التّيّار تطوّرا في ما بعد ليمثّل حركة زهديّة منظّمة تحت اسم النّسّاك والزّهّاد والعبّاد، ومن أشهرالأسماء التّي برزت الحسن البصري (ت 111هـ)، والأحنف بن قيس (ت 67هـ) الذّي ذهب الدّكتور علي سامي النّشّار للقول أنّه أوّل من وضع مقام الخوف والمحاسبة للبصريّين، يقول "ولا شكّ أنّ الحسن البصري قد سار على خطى الأحنف ابن قيس وهو يضع أسس الخوف ومحاسبة النّفس، كما أنّ الحسن قد روي مرارا عن الأحنف".[22]

3. ظهور التّصوّف كعلم

أواسط القرن الثّالث هجري تطوّرت المنظومة الصّوفيّة لتشكّل علما مستقلاّ بذاتها خدمه المنتسبون إليه وعمدوا لتدوينه تحت عناوين مختلفة أرّخت لتجارب هؤلاء المتصوّفة، وقد ساهمت هذه الكتب في تحديد قواعد هذا العلم ومزيد فهم ماهيته.

ومن أبرز تلك العناوين في هذه الحقبة "الطّريق إلى الله" للحارث المحاسبي، وكتاب "التّعرّف على مذهب أهل التّصوّف" لأبي بكر الكلاباذي، وكتاب "اللّمع في التّصوّف" لأبي نصر عبد الله بن علي السّراج الطوسي، والرّسالة القشيريّة

20 عفيفي، أبو العلا، التّصوّف الثّروة الرّوحيّة في الإسلام، دار الشّعب، بيروت، ص 81.
21 فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، دار الجيل، بيروت، 1993، ص 49.
22 النّشّار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ص 115.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

لأبي القاسم القشيري، ومع كتاب إحياء علوم الدّين لأبي حامد الغزالي دخل التّصوّف في إطار الإسلام السّنّي وأصبح علم من العلوم الشّرعيّة له قواعد ومناهج خاصّة به.

تطوّر علم التّصوّف أكثر لمّا اعتمدت لغات أخرى في التّأليف الصّوفي خاصّة خلال القرن الخامس هجري، كالفارسيّة والتّركيّة والأورديّة[23]، ومنها كتابات جلال الدّين الرّومي (ت672هـ) وعلي عثمان الجلابي الهجويري (ت465هـ) صاحب كتاب "كشف المحجوب".

المطلب الثّاني: ديناميكيّة التّجربة الصّوفيّة

1. التّصوّف من السّنّي إلى الفلسفي

مثّل القرن السّادس هجري نقطة تحوّل هامّة في تاريخ التّصوّف حينما أخرج من طور التّصّوف السّنّي واصطبغ بالفلسفة، فتكوّنت منظومة لغويّة جديدة اتّسمت بالغموض واحتاجت لمحاولات جادّة لشرح مبهماتها وكسر ألغازها، أرّخت لمرحلة جديدة من مراحل هذا العلم .

وهذا النّسق الصّوفي الجديد لا يمكن اعتباره فلسفة لأنّه قائم على الذّوق القلبي كما لا يمكن اعتباره تصوّفا خالصا لأنّه يختلف عن التّصوّف الخالص في أنّه معبّر عنه بلغة فلسفيّة، متّجها نحو وضع مذاهب في الوجود أساسا"[24]، ويقدّم التّفتزاني تعريفا لهذا التّصوّف الفلسفي يقول "التّصوّف الذّي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصّوفيّة بأنظارهم العقليّة مستخدمين في التّعبير عنه مصطلحا فلسفيّا استمدّوه من مصادر متعدّدة". [25]

[23] ابن الطّيّب، محمّد، إسلام المتصوّفة، رابطة العقلانيّين العرب، دار الطّليعة، ط1، 2007، ص47.
[24] التّفتزاني، أبو الوفاء، مدخل إلى التّصوّف الإسلامي، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، ط1/ 1979، ص187.
[25] التّفتزاني، مدخل إلى التّصوّف الإسلامي، ص187.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ويمكن القول أنّ هذا النّمط الصّوفي الجديد المشهور بنظريّات وحدة الوجود، كان نتاجا لتجارب المتصوّفة السّابقين حيث طوّروا وحدة الوجود هذه من الحالة الذّوقيّة الشّهوديّة إلى نظريّة في الوجود، وأهمّ من اشتهر بها يحي بن حبش السّهروردي الفارسي (ت587هـ) وابن عربي الأندلسي (ت638هـ).

و إجمالا فإنّ مذهب وحدة الوجود قائم على نظريّة أنّ الوجود هو الله، وأنّ مختلف مظاهر التّعدّد والتّكاثر في الموجودات ما هي إلاّ مظاهر تجلّى فيها الوجود الواحد، بمعنى لا وجود في الحقيقة إلاّ لله.

2. ابستمولوجيا التّصوّف السّنّي

ينطلق التّصوّف الإسلامي عامّة من وحدة الشّخصيّة البشريّة ويسوق القشيري ما يفيد هذه الوحدة من حيث أنّها شخصيّة متكاملة ومتفاعلة مع غيرها يقول "ويحتمل أن تكون النّفس لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أنّ الرّوح لطيفة مودعة في هذا القالب هي محلّ الأخلاق المحمودة، وتكون بشكل عام مسخرا لبعضه البعض، والجميع إنسان واحد...وكما يصح أن تكون العين محلّ الرّؤية، والأذن محلّ السمع، والأنف محلّ الشّم، والفم محلّ الذّوق، وكذلك فالسّميع والبصير والشّام والذّائق، إنّما الجملة التّي هي الإنسان، فكذلك محلّ الأوصاف الحميدة للقلب الرّوح، ومحلّ الأوصاف الذّميمة هو النّفس، والنّفس جزء من هذه الجملة، والقلب جزء من هذه الجملة، والحكم و الاسم راجع إلى هذه الجملة".[26]

وهذه الجملة الإنسانيّة سعت للانصراف إلى العبادة وفق نظريّة معرفيّة جديدة لم تكن مألوفة من قبل قوامها الإحسان وهو أعلى مراتب الدّين الإسلامي، فكان طابع هذه الممارسات التّعبّديّة يختلف من مريد إلى آخر ومن سالك إلى آخر، اصطبغت أحيانا بمشاعر الخوف والحزن كما هو شأن الحسن البصري الذّي قيل عنه أنّه ما ضحك أربعين سنة من شدّة خوفه كأنّ النّار لم تخلق إلاّ له، ومالك بن دينار (ت131هـ) الذّي كان يقول "عجبا من يعلم أنّ الموت مصيره

[26] القشيري، أبو القاسم، الرّسالة القشيريّة، ص 87.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
ISSN: 2958-8537 Issue: N19 العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

والقبر مورده، كيف تقر بالدّنيا عنه وكيف يطيب فيها عيشه"، ثمّ يبكي حتّى يسقط مغشيّا عليه، و كان يتمنّى أن يغلّ بالحديد بعد وفاته فيدفع إلى ربّه كما يدفع العبد الآبق إلى مولاه.[27]

واصطبغت مع رابعة العدويّة (ت185هـ) بمشاعر الحب حتّى اصطلح على تجربتها وآثارها الشّعريّة بنظريّة العشق الإلهي وهي القائلة :

أحبــك حبّيــن حبّ الهـوى و حــبّا لأنــك أهـل لــذاكا

فأمّا الــذّي هو حبّ الهـوى فشغلي بذكرك عمّــن سـواك

و أمّا الــذّي أنت أهــل له فكشفــك للحجب حـتّى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا[28]

إنّ التّجارب الذّوقيّة لصوفيّة الحقبة الأولى أسّست لمنظومة معرفيّة أصيلة تفرّدت بمحاولات لتصفية النّفس من خلال طريق يوصل سالكه إلى الحضرة الإلهية، ومعرفة يقينيّة كاملة يتلقّاها السّالك من مصدر المعرفة بعد مروره بجمع من المقامات والأحوال.

خلال هذه التّجارب تكوّنت الموسوعة اللّغويّة الصّوفيّة من مثل الحقيقة والشّريعة علم الظّاهر وعلم الباطن إلى غير ذلك من المصطلحات المعرفيّة المضبوطة بالعمل التّعبّدي المفضي إلى الكشف والحقيقة، هذا الاتّجاه الصّوفي تميّز بالاعتدال سواء الاعتدال السّلوكي أو القولي، دون تعصّب أو شطحات.

هذا الاعتدال الذّي يتميّز به أصحاب اتّجاه التّصوّف السّنّي يبرز جيّدا مدى فهم القوم واستيعابهم للمنظومة الأخلاقيّة التّي تبدأ بالمجاهدة كوسيلة للفيض الإلهي وهذه المجاهدة هي بداية الطّريق من بعد التّوبة فحضرة الطّريق هي حضرة

[27] فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، ص 63.
[28] العدويّة، رابعة، الدّيوان، صنعه وشرحه وعلّق عليه موفّق فوزي الجبر، دار النمير للطّباعة والنّشر، دمشق، ط1/ 1999، ص81.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359 ISSN: 2958-8537 Issue: N19
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الله عزّ وجلّ، ومن لم يتطهّر من سائر الذّنوب باطنا وظاهرا لا يصحّ له دخولها"[29]، وهذا الطّريق تقلّبات في عدّ أحوال بين عدّة مقامات و"الأحوال مواهب والمقالات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكّن في مقامه، وصاحب الحال مترقّ عن حاله"[30].

3. أنطولوجيا التّصوّف الفلسفي

في مرحلة متقدّمة مع الحلاّج (ت309هـ) وابن عربي تغيّرت مرامي الممارسة الصّوفيّة التّي أخرجت التّصوّف من فكرته الأساسيّة والتّي هي العبادة الخالصة لله تعالى القائمة على الزّهد والإعراض عن زخرف الدّنيا إلى مرام وغايات أبعد عرفت بأسماء مختلفة ما زاد في إثراء الموسوعة اللّغويّة الصّوفيّة كمصطلح الاتّحاد والحلول بمعنى اتّحاد العبد بربّه وحلول الرّبّ في العبد، والفناء والبقاء، وهي أفكار تسبّبت فيها فلسفات وعقائد أجنبيّة، حتّى نعت أصحابها بالكفر والزّندقة والضّلال لما لأحوالهم وأقوالهم من غرابة وتطرّف، وهذا الحلاّج وما روي عنه من أخبار ينادي في أسواق بغداد سنوات طوال "أنا الحقّ سبحاني ما أعظم شأني"، وما في الجبّة غير الله، حتّى دعا إلى إبطال ركن الحجّ و بنى كعبة في بيته ودعا النّاس أن يحجّوا إليها، فتقدّم إليه حينها سيف الشّرع وقتله.[31]

وفي موضع أخر يروى أنّه كان يصيح في جامع المنصور " أيّها النّاس اعلموا أنّ الله أباح لكم دمي فاقتلوني، اقتلوني تأجروا وأسترح"[32]، يمكن القول أنّ مجمل أفكار الحلاّج تنتمي إلى مذهب الخلاص المسيحي الذّي يفيد أنّ السّعادة في خلاص الرّوح من الحجاب وهو الجسد واتّحادها بالرّبّ، وهو ما سعى إليه الحلاّج الذّي خالط أمشاجا من مذاهب شتّى حتّى برئ منه جماعة من الصّوفيّة منهم الجنيد البغدادي.

إنّ مأساة التّصوّف في هذه المرحلة الفلسفيّة تمثّلت أساسا في الابتعاد عن طريق الرّياضة والمجاهدة الحقيقي دونما اعتبار للثّمرة، فكانت عبادة خالصة لله من طريق المحبّة والخوف والطّمع والالتزام بأحكام الشّريعة والعمل بالتّكاليف

---

29 الشعراني، عبد الوهاب، الأنوار القدسيّة، ج1، ص34.
30 القشيري، الرّسالة القشيريّة، ص92.
31 فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، ص 212.
32 فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، ص 212.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359 ISSN: 2958-8537 Issue: N19
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الدّينيّة دون تكلّف كما سبق ورأينا في تجربة الحلاّج، يقول الحسن النّوري "من رأيته يدعي مع الله عزّ وجلّ حالة تخرجه من حدّ علم الشّرع فلا تقربنّ منه".[33]

بالتّالي يكون المرور إلى الحقيقة عبر المرور بالشّريعة دونما إسقاط للتّكاليف كما شأن بعض رجالات التّصوّف الفلسفي الذّين تركوا التّوبة من سائر الذّنوب وقال " ليس لي فعل حتّى أتوب منه، فهلك مع الهالكين وهو لا يشعر، وبعضهم صار يأكل حراما ويفطر في بيوت المساكين في مثل شهر رمضان ويقول الكلّ لله تعالى ليس لأحد معه وأنا عبده، والعبد يأكل مال سيّده، وهذا كلّه زندقة لرفضه الشّرائع ولو أنّه كان يؤمن بها لما تجرّأ على ذلك"[34].

كوّن المنهاج الصّوفي الفلسفي شذوذ معرفي لا يستقيم مع مبادئ الشّريعة استنادا إلى قواعد مفرغة تزعم أنّ القيود لا تربط العارفين و "أنّ الإنسان ليس عليه فرض ولا تلزمه عبادة إذا وصل إلى معبوده".[35]

لقد أخذ أصحاب المذهب الفلسفي تصوّفهم من كلّ المذاهب الهنديّة والفارسيّة والقبالة اليهوديّة ومن عقائد القرامطة وغير هذا، ما أنتج بناء أنطولوجيّا يفتقر إلى أبجديّات معرفيّة متوازنة قاد أبرز روّاده إلى نهايات مأساويّة..

خاتمة

إنّ تجربة الشّهود التّي عاشها المتصوّفة أنتجت معارف بكلّ الحقائق الدّينيّة وهو علم لدنيّ كوّن تجربة ابستمولوجيّة، متمثّلة في نور إلهي يقذف في قلب السّالك بعد جملة من الرّياضات والمجاهدات الصّارمة تفضي إلى تصفية النّفس من خلال قواعد سلوكيّة تنضبط وتلتزم بأحكام بالشّريعة الإسلاميّة وهذه التّجربة يأطّرها شيخ عارف بالطّريق يلتفّ حولة المريدون الذّين سينقلون طريقته من بعده .

33 فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، ص 154.
34 الشّعراني، عبد الوهّاب، الأنوار القدسيّة في معرفة قواعد الصّوفيّة، حقّقه وقدّم له طه عبد الباقي سرور والسّيّد محمّد عيد الشّافعي، المكتبة العلميّة، بيروت، ط دت، ج1، ص48.
35 فتّاح، عرفان عبد الحميد، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، ص 154.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359 ISSN: 2958-8537 Issue: N19
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وفي المقابل تجربة صوفيّة فلسفيّة فرديّة اعتمدت على التّأمّل والتّجربة الشّخصيّة المستقلّة التّي ستفضي إلى نتائج، وإلى فهم للوجود فريد من حيث المعنى، ارتكز على مفاهيم عقليّة غاب عنها الذّوق والتّحقّق غير أنّها تاقت لمعرفة الذّات الإلهيّة وفق منطق الوحدة والاتّحاد، منطق أثار جملة من التّساؤلات والإشكالات العقيمة والاتّهامات بالزّندقة والفسق.

وبين تجربة ذوقيّة وأخرى عقليّة كانت الحركة الدّيناميكيّة لعلم التّصوّف تصف حيويّة هذه الممارسات ومدى التّأثّر والتّأثير العلائقي روحيّا و جسديّا.

المصادر والمراجع

1- أبو العلا عفيفي، التّصوّف الثّروة الرّوحيّة في الإسلام، دار الشّعب، بيروت، ط/ دت.
2- أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.
3- أبو القاسم بن هوزان القشيري، الرّسالة القشيريّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط/ دت.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
28/02/2024
العدد التاسع عشر : ص.ص 345-359 ISSN: 2958-8537 Issue: N19
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

4- أبو الوفاء التّفتزاني، مدخل إلى التّصوّف الإسلامي، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، ط1/ 1979.

5- أبو عبد الرّحمان السّلمي، طبقات الصّوفيّة، كتاب الشّعب، ط1، 1970.

6- أبو نصر الطّوسي، اللّمع في تاريخ التّصوّف، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التّوقيفيّة، القاهرة، ط/ دت.

7- أحمد شمس الدّين الكلاباذي، التّعرّف على مذهب أهل التّصوّف، دار الكتب العلميّة، بيروت 1993.

8- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، 2020.

9- رابعة العدويّة، الدّيوان، صنعه وشرحه وعلّق عليه موفّق فوزي الجبر، دار النمير للطّباعة والنّشر، دمشق، ط1/ 1999.

10- زكي مبارك، التّصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصريّة، بيروت، ط1/ 2006 م.

11- شهاب الدّين السّهروردي، عوارف المعارف، دار الكتب العلميّة، 1999.

12-شهاب الدين عمر السّهروردي، عوارف المعارف، دار الكتب العلميّة، 1999.

13- عبد الرّحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د ت.

14- عبد الرّحمان ابن خلدون، شفاء السّائل لتهذيب المسائل، تحقيق محمّد بن تاويت الطّنجي، اسطنبول، 1957.

15- عبد الوهّاب الشّعراني، الأنوار القدسيّة في معرفة قواعد الصّوفيّة، حقّقه وقدّم له طه عبد الباقي سرور والسّيّد محمّد عيد الشّافعي، المكتبة العلميّة، بيروت، ط/ دت.

16-عرفان عبد الحميد فتّاح ، نشأة الفلسفة الصّوفيّة وتطوّرها، دار الجيل، بيروت، 1993.

17-علي بن عثمان الهجويري، كشف المحجوب لأرباب القلوب، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النّهضة العربيّة، القاهرة، 1980.

18- علي سامي النّشّار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام،.

19- محمّد ابن الطّيّب، إسلام المتصوّفة، رابطة العقلانيّين العرب، دار الطّليعة، ط1، 2007.